الملاح

قصة : مكسيم جوركى

ترجمة : محمد عبد اللطيف حجازى

« يا رفيقى .. اذهب الى الملاحات .. هناك يستطيع الانسان دائما أن يجد له عملا ، لانه عمل شاق لعين لا يمكن لاحد ان يصمد فيه طويلا .. كلهم يفرون .. يمكنك أن تجرب حظك هـــناك ليوم او اثنين .. سيدفعون لك حوالى سبعة كوبك مقابل نقل عربة اليد الواحدة ، وهو مبلغ يكفى لأن تعيش عليـــه يوما كاملا .. » .

وسكت محدثى الصياد ، احب هذه النصيحة ، ثم بصق على الارض ورفع بصره الى الافق حيث تلتقى زرقة السماء بزرقة البحر واخذ يدندن لنفسه لحنا كئيبا .

كنت جالسا الى جواره فى ظل كوخ للصيد ، أنا أفكر ، وهو يصلح سروالا له من القطن السميك .. ينشاءب .. ويتمتم بملاحظات عابسة غير متصلة عن ندرة الاعمال التى يمكن للانسان أن يزاولها فى الوقت الحاضر ، وكيف أن « البحث عن عمل يحتـــاج الكثير من العمل » .. واستطرد محدثى :

ـ وحينما تمل هذا العمل ، يمكنك العودة الى هنا لتستريح وتحدثنا بمـا شاهدت .. ليس المكان بعيـــدا عن هنا .. خمسة « فرست » فقط .. ايه .. كم هى غريبة هذه الحياة ! .. واستأنفت شاكرا لمحدثى نصيحته ثم بدأت رحلتى الى الملاحات . كان يوما من أيام شهر اغسطس . الجو حار ، والسماء صافية براقة ، والبحر هادىء ساكن تجرى موجاته الزرقاء متتابعة لتنساب على رمال الشاطىء محـــدثة طرطشة ضعيفة يبعث صوتها فى النفس الحزن والاسف . استمر سيرى بحذاء الشاطىء الى ان استطعت ان امير على البعد مساحات بيضاء غير محددة فوق الرمال الصـــفراء .. انها مدينـــة « اوخاكوف » .. ونظرت خلفى فلم اجد اثرا لكوخ الصيد الذى اختفى وراء كثبان الرمال الصـــفراء البراقة التى انعكس عليها ظل باهت من زرقة البحر

الزرجدية . لقد أمضيت ليلتى فى هذاالكوخ أستمع الى عشرات القصص والآراء العربية فجعلنى ذلك فى حالةمعنوية سيئة . كان صوت الامواج الحزين متمشيا مع مشاعرى فزاد منحدتها .

وسرعان ما أصبحت الملاحات فى مدىالرؤية . كانت مكونه من ثلاثة شرائح من الأرض تبلغ مساحة الشريحة منهاحوالى ربعمائه متر مربع ، يفصلها عن بعضها نطاق من الجسور المنخفضةوالخنادق الضيقة وهى فى مجموعها تمثل المراحل الثلاثة لاستخراج الملح .الشريحة الأولى تغمرها مياه البحر والتى تتبخر تاركة على سطح الأرضطبقة من الملح ذات لون رمادى باهت تشوبه مسحة خفيفة منالاللونالقرنفلى.وفى الشريحه الثانية رأيت الملح يجمع فى اكوام ، ويقوم بهذا العمل عددالسوة تمسك الواحدة منهن جاروفا بيدها وتقف معروسة فى الطين حتىركبتيها . كن يعملن فى صمت لا تكلم الواحدة منهن الأخرى او تنادى عليها.كانت هياكلهن السوداء الرمادية تتحرك

فى اعياء شديد دون توقف فوق«الراب»والراب هذا طين براق غليظ القوام ، كاو شديد الملوحة . وفى الشريحة الثالثةكان الرجال يقومون بنقل الملح فى عربات اليد . تنحنى اجسادهم فوق العرباتوكأنما قد ثنى الواحد منهم الى نصفين، يجرون اقدامهم بطريقة آلية ، ويدفعونالعربات فىصمت ، بينما عجلاتالعربات فى احتكاكها وصريرها كأنما توجه نداءات الى السماء يطلق حرينا من هذا الصف الطويل من الظهور الآدميةالعاريه ، والسماء تصب نارا حامية تلفح مساحات الأرض الرمادية ،المبرقشة باعشاب المياه الملحة وبلورات الملح البراقة .. ويعلو فوق صريرالعربات صوت « مقدم العمال » الذى يقف فوق كومة الملح يصب لعناته علىالرجال الذين يفرغون عرباتهم تحت قدميه . ويصب الماء فوق الملح منجردلفى يده ثم يقوم بتشكيله فى هيئة هرم مستطيل.. كان طويلا ، اسودا كافريقىويلبس قميصا أزرقا وسروالا طويلا

ايضا ، يحرك جاروفه فى الهـــواء ، ويصيح بأعلى صوته على الرجال الذين يدفعون العربات فوق الجسر الخشبى.

وسمعت صوته من بعيد « فرغها على اليسار .. الى اليسار أيها الشيطان.. عليك اللعنة .. انك تستحق خـــزق عينيك .. الى اين تتجه ايها الغرب ؟ » ثم اخذ يمسح عرق وجهه بطرف ثوبه ويسوى الملح بضربات قوية بظهر جاروفه محدثا صـــوتا عميقا خشـــنا كصوت الخنزير دون ان يكف لحظة عن صب لعناته ، والرجال يدفعون عرباتهم بطريقة آلية ثم يفرغونها طبقا لتعليماته « الى اليمين .. الى اليسار .. » ، وحينما ينتهى ذلك يرفعون ظهورهم بصعوبة ثم يعودون ادراجهم لحمل جديد ، خطواتهم قلقة مضـــطربة فـــوق الواح الجسر الخشبى المهتزة التى تغـــوص تحت اقدامهم فى الطين الاســـود الغليظ ، يدفعون عرباتهم الفارغة التى اصـــبح صريرها أقل جلبـــة لكنه اكثر تعبا وضجرا . ويصيح عليهم « المقدم » :

ـ ضعوا فيها قليلا من الطفل ! .. ايها اللقطاء ! ..

ويســـتمر العمال فى عملهم بنفس الصمت الذليل ، لكن وجوههم المكدودة العابســـة التى لطخها التراب والعرق كانت تقلصاتها تكشف أحيانا عما يعتمل فى نفوسهم من غضب واستياء . وقد يحدث أحيانا ان تنحرف احدى العربات فتســـقط من على الجسر وتغوص فى الطين ، فينقطع بذلك صف العربات الطويل اذ تستمر العربات الامامية فى طريقها بينما تتوقف الخلفية وتتوقف معها خطوات الرجال فى اسمالهم الممزقة واجسادهم الملطخة بنظرون بلا اكتراث الى زميلهم الذى يجـاهد وحده لرفع العربة المحملة ذات الستة عشر « بود » لكى يعيدها فوق الجسر الخشبى .

كانت السماء صافية والشمس من خلالها تصب نارها على الأرض فى اصرار شديد واهتمام بالغ وكأنما كان عليها ان تثبت فى ذلك اليوم دون غيره مدى تفانيها واخلاصها فى اداء رسالتها .. وحينما انتهيت من تأملى واستغراقى فى استيعاب كل هذه الامور ، حزمت أمرى وبدأت محاولتى للحصول على عمل . اضفيت على نفسى مظهرا مصطنعـــا من عدم الاكتراث واللامبالاة ثم مشيت بخطى ثابتة نحو الجسر الخشبى الذى يسير عليه العمـــال . كانوا عائدين يدفعون امامهم عرباتهم الفارغة فنادیت عليهم :

ـ صباح الخير ايهـــا الرفاق .. طاب يومكم ..

وكان ردهم على غير ما توقعت تماما .. كان اولهم رجلا عجـــوزا ذا شعر رمادى ، قد ثنى سرواله حتى ركبتيـــه وطوى اكمامه حتى كتفيـــه كاشفا عن جسده البرونزى وعضلاته المفتولة .. لم يسمعنى .. فمضى أمامى دون ان يعيرنى التفاتا .. وكان الثـــانى شابا ذا شعر بنى وعيون زرقاء .. القى على نظرة عداء وقلب وجهه ثم اطلق قدفه سباب تناســـب المقـــام ! .. اما الثالث فقد بدا انه يونانى ، اذ انه كان بنى اللون كالحنفسة ذا شـــعر مجعد .. وقد عبر عن اسفه لان يداه مشغولتان بحيث لا يستطيع ان يقوم

يعقد المعارف اللازم بين أنفى وقبضة يده .. قال ذلك بلهجة هادئة دون ما انفعال بحيث فقدت لهجته التناسب اللازم مع صدق رغبته ! .. وصاح الرابع بكل ما اسعفته به رئتاه من قوة « مرحى .. يا ذا العيون الزجاجية » .. ثم حاول ركلى بقدمه ! ..

اذا لم يجانبنى الصواب ، فان هذا الاستقبال يسمى فى المجتمعات المهذبة « استقبال فاتر » ، لكننى لا أذكر اننى اقد حظيت قط بمثله على هذه الصورة المذهلة .. وفى غمرة شعورى بالمهانة وخيبة الأمل ، مددت يدى بطريقة لا شعورية وخلعت نظارتى ثم وضعتها فى جيبى .. واتجهت الى « المقدم » لأسأله عما اذا كان لديه عمل لى ، لكننى قبل أن أصل اليه بادرنى صائحا فى اتجاهى :

ـ انت يا هذا ! .. ماذا تريد ؟ .. تريد عملا ؟

فاجبته بالايجاب ..

ـ هل اشتغلت قبلا على عربة يد ؟

واجبته بأننى كنت أعمل فى نقل القمامة ..

ـ القمامة ؟ .. هذا لا يفيدنا .. القمامة موضوع آخر .. نحن ننقل الملح هنا ، وليس القمامة .. يمكنك الذهاب الى الشيطان والبقاء الى جوار .. هنا .. هنا .. يا « ذا العظام الجيدة » .. ضع حملك هنا عند قدمى .

كان « ذو العظام الجيدة » هذا كتلة مرقلية له شارب طويل وانف أحمر متورم . قلب عربته مصدرا صوتا خشنا كصوت الخنزير ، واخذ الملح يهبط من العربة بينما « ذو العظام » يسب و « المقدم » يبادله السباب بصوت أعلى ثم ابتسم كل منهما للآخر فى تفاهم تام وهما يتجهان نحوى . قال « المقدم » .. « حسنا .. ماذا تريد ؟ .. وتبعه ذو العظام قائلا .. » ربما جئت فى طلب بعض الملح لتصنع العطائر .. » .. ثم غمز بعينه للمقدم .

واخذت استعطف المقدم واتوسل اليه مؤكدا له أننى سوف أعتاد العمل باسرع ما يمكن بحيث اتساوى مع الآخرين فى وقت قصير .

ـ سوف ينقصم ظهرك قبل أن تعتاد هذا العمل .. ولكن .. ما شأنى أنا .. فلتعمل .. لكننى لن أدفع لك أكثر من خمسين « كوبك » فى يومك الأول .. انت يا هذا ! .. اعطه عربة .

وخرج ـ من حيث لا أدرى ـ صبى نصف عار ، يلف على ساقيه العاريتين خرقا متسخة تصل حتى ركبتيه . القى الصبى على نظرة شك متفحصة ثم قال « هيا معى .. » .. وتبعته الى مكان تكدست فيه العربات فوق بعضها . فاخذت افحصها لاختيار احمها وزنا ، بينما وقف الغلام يهرش ساقيه ويرقبنى فى صمت الى ان انتهيت من الاختيار فقال لى :

ـ انظر ماذا اخذت ! .. الا تستطيع ان تميز كيف ان عجلتها معوجة ؟ ! ..

ثم سار الصبى مبتعدا عنى قليلا وتمدد على الأرض ..

اخذت عربة اخرى واسرعت بها حتى لحقت بالرجال الذاهبين لاحضار الملح .. لم استطع التحدث معهم فقد غمرنى شعور غامض بالحزن والضيق ..

كانت وجوههم كلها تنضح قلقا وارهاقا واضحا يجاهدون حتى يظل خافيا .. كانوا متعبين ثائرين .. ثائرين على الشمس التى تلسع جلدهم بلا رحمة .. ثائرين على ألواح الخشب التى تعوص تحت عرباتهم .. ثائرين على «الراب» .. ذلك السائل الغليظ المالح المليء بالبلورات الحادة المدببة التى تمزق اقدامهم ثم تأكل فى الجروح بحيث تصبح اقدامهم فى النهاية كتلة من الآلام المتحركة .. كانوا باختصار ثائرين على كل ما حولهم .. وكان هذا الحنق جليا حيث يمكن ملاحظته من خلال النظرات الواضحة التى يختلسها كل منهم نحو الآخر .. وخلال اللعنات التى تنطلق من حلوقهم الجافة من آن لآخر .

لم يعرنى أحدهم التفاتا .. لكننا حينما دخلنا شريحة الارض وبدأنا السير على الجسر الخشبى فى اتجاه اكوام الملح الأربعة ، شعرت بضربة فجائية على ظهر ساقى فلما ان استدرت حتى اندفع شخص فى وجهى قائلا .. « ارفع قدمك وتحرك ايها الثقيل ! » فاسرعت برفع قدمى ..

ووضعت عربتى بدأت اجرف الملح لأملأها . وامرنى هرقل أوكرانى كان يقف الى جوارى : ـ

« املأها تماما .. » .. فملأت العربة على قدر استطاعتى .. عندئذ صاح الرفاق خلفى للرفاق أمامى .. » تحركوا .. » فأخذ هؤلاء الأماميون يصقون فى أيديهم ثم يرفعون عرباتهم بحشرجة عالية وينحنون بشدة ويمطون اجسادهم للأمام ويمدون رقابهم وكأنما ذلك يخفف من ثقل احمالهم .. أخذت اقلدهم فانحنيت على قدر استطاعتى ومددت جسدى للأمام ثم رفعت العربة فصرت عجلتها صريرا عاليا ، وشعرت بترقوتى توشك أن تنكسر بينما أخذت عضلات ساعدى ترتعش من فرط اجهادها . وخطوت خطوة متعثرة .. فاخرى .. ثم أخذت الحرف تارة الى اليمين وتارة الى الشمال واهتز متعثرا للأمام .. وافلتت عجلة العربة من على الجسر الخشبى فاندفعت فى الهواء وسقطت على وجهى فى الوحل الساخن الغليظ .. واصابنى من يد العربة ضربة على ام راسى قصد منها اصلاحى واهدانى الى سواء السبيل ! ثم اخذت العربة تنقلب ببطء راسا على عقب .. وشعرت بالضحكات وصيحات التهكم والاستهزاء وكأنما تضغط على راسى ليغوص وجهى اكثر واكثر فى الوحل .. وشعرت بآلام حادة فى صدرى وأنا احاول رفع العربة المقلوبة .. صحت مناديا الأوكرانى الذى كان واقفا الى جانبى « ساعدنى ايها الصديق » .. لكنه كان مغرقا فى الضحك واضعا يداه فى وسطه ـ يتمايل الى الأمام والخلف ، لا يكاد يتمالك نفسه .. أجابنى قائلا :

ـ انت ايها اللغيط ! . يا آكل الطين ! .. هل نزلت تخوض فى الوحل ؟! .. اعد العربة الى الجسر . اضغط على الجانب الأيسر .. تك .. تك .. سوف تعوص فى « الراب » اذا لم تأخذ حذرك ! .

ثم ضحك مرة اخرى واستمر يضحك ممسكا وسطه بين يديه حتى اغرورقت عيناه .. كان الرجل العجوز ذو الشعر الرمادى أمامى ، التفت نحوى ورشقنى

نظرة احتقار ثم طوح بذراعه قائلا فى غيظ «بحق الشيطان .. لماذا لا يستطيع الثبات فى سيره على الجسر ؟» ثم دفع عربته وتركنى مرمحرا ..

مضى من كان أمامى من الرجال فى طريقهم بينما وقف من كانوا خلفى يرقبوننى بامتعاض وأنا أجاهد لانقاذ عربتى .. تصبب منى الطين والعرق ولم يقدم لى أحد يد المساعدة .. واتى صوت « المقدم » من فوق كومة الملح مادا يعطلكم ايها الاباليسة ؟ .. ايهما الكلاب .. ايها الخنازير .. اعبروا من امامى .. تحركوا لعنة الله عليكم ! » .

وقال الاوكرانى بحشونة « افسح الطريق » ثم مضى بجانبى فى جلبة وصخب وهو يكاد يضرب جانب عربته فى راسى ! ..

تركونى وحيدا .. لكننى استطعت بطريقة او اخرى ان احدب العربة التى خرجت فارغة ملطخة بالطين ، فاسرعت ادفعها امامى خارج الشريحة وفى نيتى ان ابدلها باخرى .. وسمعت صوتا يخاطبنى :

ـ هل احدثت عربة طائرة ايها الرفيق ؟ ! .. لا عليك ؛ ان هذا يحدث للجميع فى البداية ..

نظرت حولى لاتبين صاحب الصوت فرايت شابا فى العشرين يتربع على لوح خشبى فوق الطين بجوار كومة ملح .. كان يمص كف يده .. هز رأسه لى ولمحت عيناه تطلان من بين اصابعه .. رحيمتان باسمتان ... قلت له :

ـ لست مبتئسا .. وسوف اعتاد العمل بسرعة ... مادا اصاب يدك ؟ ..

ـ انه خدش بسيط ، لكن الملح يأكل فيه .. اذا لم تمتص الملح من الجرح فقد تترك العمل ايضا لانك لا تستطيع استعمال يدك المصابة .. لكن من الافضل أن تسرع بالعودة الى عملك قبل ان يبدا المقدم نداءه عليك .

وعدت مسرعا .. سارت الأمور على ما يرام مع الحمل الثانى ، ونقلت حملا ثالثا ورابعا ، وحملين آخرين .. لم يعرنى احد اى التفات .. وقد سررت لذلك كثيرا رغم أنه ربما بعث الضيق فى نفسى لو كانت الأمور تسير فى ظروف عادية .

صاح شخص ما « حان وقت الغداء .. » فوقر الرجال زفرة ارتياح ثم توجهوا لتناول غدائهم . لكن حركتهم كانت تفتقر الى الحماس اللازم فى طرف كهذا متثاقلين معرضين فى اشمئزاز وغيظ مكتوم .. وبدا كأنما الراحة لا تجلب اى ترويح للطعام التى عدتها العمل او العضلات التى ارهقتها حرارة الجو . شعرت بالم فى ظهرى وكتفى وساقى لكننى جاهدت لاخفاء ذلك ومشيت بنشاط نحو قدر الحساء .

وصاح عامل عجوز يرتدى قميصا ممزقا ازرق اللون « قف يا هذا ! » .. كان لون وجهه فى زرقة لون قميصه من اثر الخمر وحاجباه كثان يضمهما مغطيا الى عينين ناريتين تشعان فى قسوة وسخرية .. تساءل متجهما :

ـ قف يا هذا .. ما اسمك ! .

وذكرت له اسمى .

ـ .. ؟؟؟ .... ان اباك كان معقلا كبيرا حين خلع عليك مثل هذا الاسم . أن من يحمل اسم « مكسيم » عير

مسموح له بالاقتراب من قدر الحساء في يومه الأول .

كل من يحمل اسم « مكسيم » عليه أن يقتات من زاده الخاص في أول يوم له هنا ...

أرايت ؟ .. كان الأمر يختلف لو أن اسمك كان « ايفان » أو غيره ، فأنا على سبيل المثال ، اسمي « ماتفي » ، ولهذا السبب استطيع الحصول على غدائي من القدر .. أما « مكسيم » فانه لا يحصل على غدائه ويستطيع فقط أن يشاهدني وأنا اتناول غدائي .. ابتعد عن هذا القدر ! ....

ونظرت للرجل في دهشة ، ثم مشيت بعيدا وجلست على الارض .. لقد ادهلتني هذه المعاملة الغريبة . فلم يحدث أن صادفت مثلها في حياتي قط ، ولا شك انني لم أفعل ما استحق عليه مثل هذه المعاملة الشاذة .. لقد صادفت مجموعات كثيرة من العمال قبل ذلك وعشت في وسطهم وعملت معهم وكانت علاقاتنا بسيطة اخوية منذ اللحظة الأولى .... ان هناك شيئا غريبا في هؤلاء الرجال .. ثارت في رأسي علامات استفهام كبيرة رغم كل ما نلته من اهانة وتحقير .. شعرت برغبة شديدة في ان أكتشف سر هذا اللغز ..

وحين وصلت الى هذه النقطة في سلسلة تفكيري جلست هادئا في انتظار العودة الى العمل ارقب العمال وهم يتناولون غذائهم دون أن يفصح مظهري تلك الثورة التي اعتملت في نفسي وتصميمي على معرفة سبب معاملتهم لي بمثل هذه القسوة .

فرغ العمال من الاكل والتحشا .. وبدأوا يدخنون ويتمشون بعيدا عن القدر ..

سار الهرقل الاوكراني والغلام ذو السيقان المربطة في اتجاهي ثم جلسا امامي فاعترضا مجال رؤيتي لصف العربات المتروك فوق الجسر . سألني الاوكراني :

ـ هل تدخن أيها الرفيق ! .

ـ اشكرك .. هذا لا يضير ..

ـ أليس معك دخان ؟

ـ لو كان معي ما احدت دخانك .

ـ هذا صحيح ! .. خذ

وناولني سيجارة ، ثم أكمل حديثه :

ـ هل تنوي الاستمرار هنا ؟

ـ سابقى طالما وجدت بنفسي القدرة على البقاء !

ـ ههههم ... من اي بلد انت ؟

وذكرت له بلدي ، فسألني :

ـ أهي بعيدة عن هنا ؟

ـ حوالي ثلاثة آلاف « فرست » .

ـ .. اوه .. انها بعيدة جدا . ما الذي جاء بك الى هنا ؟

ـ نفس الشيء الذي دفعك للحضور !

ـ اذن فقد طردوك انت الآخر من بلدك لأنك ضبطت متلبسا بالسرقة !

وايقنت ان الرجل قد استدرجني لقهقهة فتساءلت بسرعة :

ـ ماذا ؟ .. ما هذا ؟

ـ لقد جئت انا الى هنا لأنني طردت من بلدي بسبب السرقة ، وقد قلت لي الان انك قد جئت لنفس السبب !

ـ ثم انفجر ضاحكا وقد سره انه قد استدرجني لهذه القهقهة . ولم يقل له رفيقه الآخر شيئا وانما عمر له بعينه

وابتسم فى دهاء . بادرته قائلا :

ـ انتظر ....

فقاطعنى :

ـ لاوقت للانتظار أيها الرفيق . يجب علينا العودة الى العمل .. هيا بنا .. خذ عربتى وانتظم فى الصف خلفى .. ان عربتى جيدة يمكن الاعتماد عليها .. هيا بنا .. وبدا يسير .. كنت على وشك ان آخذ عربته لكنه قال بسرعة :

ـ دع الأمر لى .. سوف آخذها بنفسى .. اعطنى عربتك ، وسوف أضع عربتى داخلها لكى تذهب راكبة بعض الوقت فتستريح قليلا ..

سرت الى جانبه وقد أثار تصرفه هذا شكوكى .. كانت عربته مقلوبة داخل عربتى فأخذت أتفحصها جيدا لأتأكد من انه لا يدبر لى مقلبا .. لكنى لم الاحظ شيئا سوى أننى قد اصبحت بلا مقدمات محور اهتمام الجميع وان جاهدوا لاخفاء ذلك ..

أخذ الهمس يسرى بينهم بينما غمزاتهم وايماءاتهم كلها تتجه نحوى . وتأكدت من اننى لابد وان أكون على حذر .. كانت تجربتى معهم تؤكد لى ان أى شىء يحيكونه ، يكون على درجة فائقة من الحيكة والاتقان .

واخيرا قال الأوكرانى :

ـ هاقد وصلنا ..

وانزل عربته ثم دفع بها فى اتجاهى قائلا :

ـ هيا .. املأها .

نظرت حولى .. كان الجميع منهمكين فى عملهم فعملت مثلهم وبدأت املأ العربة بالجاروف .. وسكن كل صوت الا صوت الملح يتدحرج من الجواريف .. وبعث هذا الصمت فى نفسى حزنا مبهما فشعرت بأن الرحيل عن هذا المكان كسب كبير .. وسمعت « ما تفى » ذو الوجه الأزرق يأمرنى :

ـ هذا يكفى .. هل علىك التعاس؟.. تحرك .

أمسكت بدى العربة ودفعتها للأمام بجهد كبير ، فشعرت بألم شديد فى راحتى يداى جعلتنى أصرخ وتركت العربة على الفور ، وسبب لى ذلك آلاما أشد من السابقة . فقد سلخ جلد كفاى .. ضغطت على أسنانى فى غيظ وألم واخذت أفحص يدى العربة فوجدت انهما قد شرختا عند حافتيهما الخارجيتين ، وحشر فى الشق قطع رفيعة من الخشب بحيث يظل مفتوحا وقد عمل ذلك بطريقة متقنة يصعب اكتشافها . قدر الفاعل انه عندما أمسك بيدى العربة واضغط عليهما فان جلد يدى يدخل فى الشق وتفز قطع الخشب من مكانها ليضم الشق ممسكا بجلد يدى .. لم يخطىء الفاعل التقدير، وكان ما كان ..

رفعت راسى ونظرت حولى فصفعت وجهى صيحات الاستهزاء والتهليل والتهكم والسخرية وكل الوجوه تنظر متفحصة وعليها ابتسامات كريهة ..

تعالت لمسات « المقدم » . من فوق كومة الملح ولكن احدا لم يعبأ به .. كنت انا محط اهتمامهم جميعا نظرت حولى نظرة فارغة رائعة وفى داخلى احساس يعلى بالألم . شعرت بكراهية شديدة نحو هؤلاء الرجال ورغبة عارمة فى ان اثأر لنفسى منهم .. كانوا يتزاحمون امامى ، يضحكون ويسبون ويعلقون ورغبتى تزداد حدة فى ان احقرهم وأنال منهم جميعا ..

اقتربت منهم ملوحا يدى وصحت باعلى صوتى « ايها الوحوش .. » واخذت ألعنهم بكل كلمات السباب التى قذفونى بها .. سرت رجفة فى صفوفهم وبدأوا يتراجعون فى قلق فيما عدا الأوكرانى و « ماتفى » ذو الوجه الأزرق اللذين ثبتا فى مكانيهما وبدأ كل منهما يشمر اكمامه فى هدوء . تمتم الأوكرانى فى نشوة دون أن يرفع عنى عيناه .. « تقدم .. تقدم .. » وقال له «ماتفى» مشجعا .. « عليك به يا جارفيلا » .. صحت فيهم جميعا « لأى سبب تفعلون بى ذلك ؟ .. هل آذيت احدا منكم ؟

الست انسانا مثلكم ؟ .. » وهتفت بكلمات اخرى حمقاء ، لا معنى لها ، وجسمى كله يرتعش من شدة الغضب .. كنت فى نفس الوقت مترقبا آخذا حذرى منهم حتى لا اكون هدفا سهلا للمزيد من حيلهم ، ولكن الوجوه الممسوخة الماثلة أمامى لم تعقد مسحة عطف واشفاق .. بل ان بعضها كان عليه تعبير صريح عن الشعور بالاثم .. حتى ماتفى والاوكرانى اللذين تراجعا خطوة او اثنتان الى الوراء . اخذ ماتفى يجذب طرف قميصه والاوكرانى يعبث فى حبوبه وانا اهتف فى اصرار .. « لماذا تفعلون بى ذلك ؟ ما الذى يدفعكم الى ايذائى؟ .. » ظلوا صامتين .. الاوكرانى يعبث بسيجارة ووجهه الى الارض ، وماتفى يسير مبتعدا حتى اصبح ابعد الجميع عنى ، بينما هرش الجميع رؤوسهم فى كآبة ثم استداروا كلهم عائدين الى العربات حيثما اتى « المقدم » صائحا ملوحا .. حدث ذلك كله فى لحظات حتى ان النسوة اللائى كن قد توقفن عن العمل عند سماعهن صرختى لم يصلن الا بعد ان انفض الرجال ..

تركت وحيدا احس بالمرارة فقد تركت هكذا دون ان يلقى الضرر الذى لحق بى حقه من الاهتمام ودون ان اثأر لنفسى او استرد اعتبارى .. وشق على أن احتمل كل ذلك .. كنت فى حاجة الى اجابة تشفى غليلى وتطفىء ظمأ الى الثأر فصحت فيهم « لحظة واحدة أيها الرفاق .. » فتوقفوا واستداروا نحوى فى اكتئاب .. « أخبرونى .. لماذا اردتم ايذائى ؟ . لابد وان لكم ضمائر تود مثلى ان تعترف السبب .. » لكنهم ظلوا صامتين وكان صمتهم هو الاجابة على كل تساؤل .. تمالك نفسى تماما وبدأت احدثهم كيف انى انسان مثلهم فى حاجة الى القوت ولهذا جئت أعمل معهم كواحد منهم يربطنا جميعا وحدة المصير ولم يخطر ببالى قط أن اتعالى عليهم او أفكر للحظة فى انى ارفع منهم شانا .. وقلت فى نهاية كلامى « كلنا متساوون ويجب علينا جميعا ان نفهم بعضنا البعض وان يساعد كل منا الآخر على قدر استطاعته .. » .

وقفوا يستمعون فى انتباه متجنبين النظر الى عيناى ، وشعرت ان كلماتى لها صدى فى نفوسهم فالهمنى ذلك وبعث فى نفسى الامل . نظرت حولى نظرة سريعة فلمست مدى تأثرهم واقتناعهم وملأنى شعور عامر بالفرح فالقيت بنفسى على كومة ملح واخذت ابكى بشدة .. حينما رفعت رأسى الفيت نفسى وحيدا . كان يوم العمل قد انتهى وجلس العمال فى جماعات متناثرة بقرب كومة الملح .. كانوا يكونون فى مجموعهم بقعا قاتمة فوق الملح الذى خضبه ضوء الشمس بلون وردى .. الهدوء شامل والبحر يبعث بنسمة والسماء تعبرها سحابة بيضاء تخطر فى بطء وتراح تاركة خلفها من لحظة لاخرى قطعا متناثرة من الضباب تبتعد عنها لتذوب فى الفضاء الأزرق الفسيح .. كان الجو كله مفعما بالحزن ..

نهضت من مكانى وسرت بخطى ثابتة تجاه كومة الملح وقد عقدت العزم على وداعهم لأعود ادراجى الى كوخ الصيد .. وحينما اقتربت نهض عدد منهم وساروا لمقابلتى .. ماتفى والاوكرانى والمقدم وثلاثة آخرون من ذوى الرقاب الحشنة ! .. وقبل أن اجد فرصة للكلام مد « ماتفى » .. يده دون أن ينظر الى وقال « اسمع أيها الرفيق .. يجدر بك أن ترحل وتذهب لشأنك .. لقد جمعنا لك مبلغا صغيرا من المال .. خذه » .. كان فى يده بعض القطع النحاسية والتى رنت حينما بسط يده نحوى .. أذهلنى المفاجأة فوقفت أنظر اليهم دون ان انطق بحرف وقد وقفوا جميعا مطأطئى الرؤوس فى صمت ، يعبثون بأسمالهم الممزقة فى غباء ويميلون من قدم على قدم ويتلفتون حولهم أو يهرون اكتافهم .. كل حركة من حركاتهم تكشف عن رغبتهم فى الخلاص منى بأسرع ما يمكن .

دفعت يـــد « ماتفى » قائلا « لن آخذها » فرد قائلا :

ـ هيا .. لا تتعمد مضايقتنا هكذا ، فنحن لسنا قوما سيئين الى هذا الحد . انا نعلم جيدا اننا قد آذينا شعورك ، ولكن ما حيلتنا ؟ انك اذا تفحصت الأمر جيدا لوجدت انه لا لوم علينا ، وانما اللوم كله لطريقة معيشتنا هنـــا .. عيشتنا هنا عيشة الكلاب ! .. العربة ذات الســـتة عشر بود ، الراب الذى يبرى أقدامنـــا والشمس التى تلسع ظهورنا طول النهار .. وخمسون كوبك فى النهاية .. ان ذلك كله كفيـــل بأن يحيل اى انسان الى وحش صـــار .. تعمل وتعمل وتكدح طول النهـــار ثم تشرب بما عملت وتعود الى العمل من جديد .. تلك هى البداية والنهاية .. اذا ما عشت هذه الحياة لخمسة أعوام متصلة فان عنصر الانسان فيك يموت ولا يبقى منه شيء وتستحيل وحشا .. هذا هو كل شيء .. اسمع أيهـــا الرفيق .. اننا نبادل بعضنا البعض ما هو اسوأ بكثير مما فعلناه بك .. نحن اصدقاء الداء .. اذا صح القـــول .. بينما انت وافد جديد .. فلماذا نترفق بك ؟ .. هذا هو الموقف .. ان ما قلته لنـــا صحيح وسليم للغـــاية ، لكنه لا يناسنا .. فما كان واجبا ان تأخذ ما حدث هذا المأخذ .. لقد كنا نهزل .. ثم .. اننا نحس ولنـــا قلوب .. من الأفضـــل ان ترحل لتفكر على طريقتك وتدعنا هنا نفكر على طريقتنا .. خـــذ هذا المبلغ الصغير وارحل عنا تصحبك السلامة .. نحن لم نؤذك .. وانت لم تؤذنا .. صحيح ان الأمور قد ساءت ، ولكن ماذا كنت تتوقع ؟ .. ان الامور لا تتحسن هنا ، ولن تكسب شـــيئا ببقائك فانت لا تصلح لهذا المكان .. لقد اعتدنا بعضنا البعض ، وانت لست منا ، فلا جدوى من بقائك بيننا وعليك ان ترحل الآن لتعيش كيف تشـــاء .. تصحبك السلامة ! » .

نظرت اليهم .. كان واضـــحا انهم يشاركون « ماتفى » رأيه فامسكت كيس متاعى وطوحت به على ظهرى وهممت بالرحيل حين وضع الاوكرانى يده على كتفى قائلا :

ـ « لحظـــة من فضلك .. دعنى اضيف شيئا .. لو كان الأمر يتعلق بأى مخلوق غيرك لأعطيتـــه لكمـــة فى فكه للذكرى .. لكن احد لم يلمسك بسوء بل اننا جمعنا لك مبلغا من المـــال كهديه .. كان الأجدر بك ان تشكرنا على ذلك » ..

ويصق .. ثم أخذ يلف كيس دخانه بسرعة وكأنه يريد أن يقول « تأمل .. كم انا لـــق ! » وســـحقنى كل ذلك فأسرعت استودعهم وبدأت سيرى مرة أخرى بحذاء الشاطىء لكى أعود ادراجى الى كوخ الصـــيد الذى قضيت فيـــه ليلتى ..

كانت السماء صافيه والجو حـــارا والبحر واسعا ساحرا تتدحرج موجاته الصغيرة الخضراء هادرة على الشاطىء .. شعرت لسبب او لآخر بالألم والحزن ، واخذت أجر أقدامى ببطء فوق الرمال الساخنة .. الشمس ساطعة والبحـــر يشع فى هدوء وطمأنينة والأمواج تهمس بشيء حزين غير مفهوم .

حينما وصلت كوخ الصيد نهـــض صديقى الصياد ليقابلنى قائلا :

ـ لم يعجبك مذاق هـــذا الملح .. هـــه ؟ !

قالها بلهجه من يشعر بالرضـــا لأن نبوءته قد ثبت صحتها .. فنظرت اليه فى صمت .. قال مؤكدا :

ـ هل كان الملح أريد من اللازم ؟ ! .. اجائع انت ؟ .. هيا تعال وتناول بعضا من العصيدة .. لا ادرى لماذا يطهون كل هذه الكمية ، فقد تبقى نصفها .. هيا شغل ملعقتك .. عصيدة من الدرجة الأولى بأســـماك « الفـــلاوندر والاسترجون » ..

وبعد دقيقتين كنت جالســـا فى الظل بجانب الكوخ .. متـــجا .. مرهقا .. جائعا .. اتناول وجبة لا طعم لها .. عصيدة من الدرجة الأولى بأســـماك الفلاوندر والاسترجون ..